

حلاوة الإيمان ولذة الطاعة

عناصر الخطبة:

معنى حلاوة الإيمان

الأسباب التي يحصل بها العبد حلاوة الإيمان.

آثار تذوق حلاوة الإيمان

مواقف لمن ذاق حلاوة الإيمان

موانع حصول حلاوة الإيمان

التفصيل

الحمد لله وبعد، فإن حلاوة الإيمان ولذة الطاعة والإحسان، نعمة لا تُذاق إلا بالجنان، ولا يستطيع أن يُعبّر عنها اللسان، نعمة لا يُدركها ولا يعرف قيمتها إلا من ذاقها وأحسّ بها وعاش معها، ولذة لا يستشعر أثرها إلا من تذوق طعمها، ووجد طيب العيش في ظلّها.

أيها الأحبة: إنّ حلاوة الإيمان، تسري في قلب المؤمن سريان الماء في العود، وتجري مجرى الدماء في العروق، فيأنس بها القلب وتطمئن بها النفس، وينشرح لها الصدر، فلا يشعر معها المرء بقلق ولا أرق ولا ضيق ولا هم ولا غم، قال جل وعلا: **إِذْ يَرْدِيهِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ**

لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ
الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ { [الأنعام: ١٢٥] وقال تعالى {أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ
عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } [الزمر: ٢٢]

معنى حلاوة الإيمان:

قال النووي -رحمه الله- : قَالَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ مَعْنَى حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ اسْتِئْذَانُ الطَّاعَاتِ وَتَحْمَلُ
الْمَشَقَّاتِ فِي رِضَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولِهِ -صلى الله عليه وسلم- وَإِثَارُ ذَلِكَ عَلَى عَرَضِ الدُّنْيَا
وَمَحَبَّةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِفِعْلِ طَاعَتِهِ وَتَرْكِ مُخَالَفَتِهِ وَكَذَلِكَ مَحَبَّةُ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله
عليه وسلم-. (٢١٧)

الأسباب التي يحصل بها العبد حلاوة الإيمان:

١ - أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا: فَعَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ -صلى
الله عليه وسلم- قَالَ: ((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ
مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ،
كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ)) (٢٢١)

وفي لفظٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم-: ((لَا يَجِدُ أَحَدٌ
حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ . . . الْحَدِيثُ)) (٢٣١)

قال ابن القيم -رحمه الله- في محبة الله جلَّ وعلا: هِيَ الْمَنْزِلَةُ الَّتِي فِيهَا تَنَافَسَ الْمُتَنَافِسُونَ. وَإِلَيْهَا شَخَّصَ الْعَامِلُونَ. وَإِلَى عِلْمِهَا شَمَّرَ السَّابِقُونَ. فَهِيَ قُوَّةُ الْقُلُوبِ، وَغِذَاءُ الْأَرْوَاحِ، وَقُرَّةُ الْعُيُونِ. وَهِيَ الْحَيَاةُ الَّتِي مَنْ حُرِمَهَا فَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْأَمْوَاتِ. وَالنُّورُ الَّذِي مَنْ فَقَدَهُ فَهُوَ فِي بَحَارِ الظُّلُمَاتِ. وَالشِّفَاءُ الَّذِي مَنْ عَدِمَهُ حَلَّتْ بِقَلْبِهِ جَمِيعُ الْأَسْقَامِ. وَاللَّذَّةُ الَّتِي مَنْ لَمْ يَطْفُرْ بِهَا فَعَيْشُهُ كُلُّهُ هُمُومٌ وَالْأَلَامُ. وَهِيَ رُوحُ الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ. (٢٤٦)

* ومن لازم محبة الله، أن يرضى بالله وعن الله، ولا يبغى رباً سواه، وأن يرضى بما شرعه ولا يجد في صدره حرجاً حال امتثاله لأوامره وأوامر رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وأن يرضى بقضائه وقدره، حلوه ومره، ويعلم يقيناً أن ما قدره الله له هو عين الفضل والحكمة.

عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، يَقُولُ: ((ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا)) (٢٥٧)

قال النووي -رحمه الله-: مَعْنَى الْحَدِيثِ لَمْ يَطْلُبْ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى وَلَمْ يَسْعَ فِي غَيْرِ طَرِيقِ الْإِسْلَامِ وَلَمْ يَسْلُكْ إِلَّا مَا يُوَافِقُ شَرِيعَةَ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ مَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتُهُ فَقَدْ خَلَصَتْ حَلَاوَةُ الْإِيمَانِ إِلَى قَلْبِهِ وَذَاقَ طَعْمَهُ. (٢٦٦)

* محبة رسوله -صلى الله عليه وسلم-: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَاَلِدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ

أَجْمَعِينَ)) [٧١] وفي لفظ ((لَأُؤْمِنُ عَبْدًا - وفي رواية: الرَّجُلُ - حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)) [٨١]

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هِشَامٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ((لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ)) فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ، وَاللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ((الآنَ يَا عُمَرُ)) [٩١] (لا) لا يكمل إيمانك. (الآن) كمل إيمانك.

ومن علامة محبته - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: الاقتداء به، واستعمال سنته، واتباع أقواله، وأفعاله، واجتناب نواهيها، والتأدب بآدابها في عسره ويسره ومنشطه ومكرهه، وإيثار ما شرعه وحض عليه على هوى نفسه، وكثرة ذكره له، ومن ذلك كثرة الصلاة والسلام عليه، ونشر سنته بين الناس.

٢ - أَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَأُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ: والحبُّ في الله من أصول الإيمان وأعلى درجاته.

قال ابن رجب - رحمه الله -: مِنْ عَلَامَاتِ وُجُودِ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ أَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَأُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ. وَيَحْرُمُ مَوْلَاةُ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَمَنْ يَكْرَهُهُ اللَّهُ عُمُومًا، وَبِهَذَا يَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ. [١٠٧]

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - ، قَالَ: أَحَبُّ فِي اللهِ، وَأَبْغَضُ فِي اللهِ، وَوَالٍ فِي اللهِ، وَعَادٍ فِي اللهِ، فَإِنَّمَا تُتَالُ وَلَايَةُ اللهِ بِذَلِكَ، لَا يَجِدُ رَجُلٌ طَعَمَ الْإِيمَانَ وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصِيَامُهُ حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ. (٢١١)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، عَنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، أَنَّهُ قَالَ: ((مَنْ أَحَبَّ - وَفِي رِوَايَةٍ: مَنْ سَرَّهُ - أَنْ يَجِدَ طَعْمَ الْإِيمَانِ، فَلْيُحِبِّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)). (٢١٢)

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، عَنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: ((مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ)) (٢١٣)

٣- أَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْفَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ:

قال ابن رجب رحمه الله- : فإن علامة محبة الله ورسوله: محبة ما يحبه الله ورسوله وكرهه ما يكرهه الله ورسوله فإذا رسخ الإيمان في القلب وتحقق به ووجد حلاوته وطعمه أحبه وأحب ثباته ودوامه والزيادة منه وكره مفارقتة وكان كراهته لمفارقتة أعظم عنده من كراهة الإلقاء في النار، قال الله تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾. والمؤمن يحب الإيمان أشد من حب الماء البارد في شدة الحر للظمان. ويكره الخروج منه أشد من كراهة التحريق بالنيران. . . فإذا وجد القلب حلاوة الإيمان

أحس بمرارة الكفر والفسوق والعصيان ولهذا قال يوسف عليه السلام: {رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ}. وقال بشر بن السري: ليس من أعلام المحبة أن تحب ما يبغضه حبيبك. [١٤١]

٤ - مجاهدة النفس على الطاعة:

قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩]

قال ابن القيم -رحمه الله- : السَّالِكُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ يَجِدُ تَعَبَ التَّكَالِيفِ وَمَشَقَّةَ الْعَمَلِ. لِعَدَمِ أَنْسِ قَلْبِهِ بِمَعْبُودِهِ. فَإِذَا حَصَلَ لِلْقَلْبِ رُوحُ الْأَنْسِ زَالَتْ عَنْهُ تِلْكَ التَّكَالِيفُ وَالْمَشَاقُّ. فَصَارَتْ قُرَّةَ عَيْنٍ لَهُ. وَقُوَّةً وَذَدَّةً. فَتَصِيرُ الصَّلَاةُ قُرَّةَ عَيْنِهِ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ عَيْنًا عَلَيْهِ. وَيَسْتَرِيحُ بِهَا، بَعْدَ أَنْ كَانَ يَطْلُبُ الرَّاحَةَ مِنْهَا. فَلَهُ مِيرَاثٌ مِنْ قَوْلِهِ: -صلى الله عليه وسلم-: ((أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ يَا بِلَالُ)). ((وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ)) وذلك بحسب إرادته، ومحبتته، وأنسه بالله سبحانه وتعالى، ووحشته مما سواه. [١٥٦]

قال ثابت البناني: كابدت الصلاة عشرين سنة وتلعمت بها عشرين سنة. فكنت أدخل في الصلاة فأحمل همَّ خروجي منها ويضيق صدري إذا فرغت لأنني خارج منها. [١٦٦]

٥- ذكر الله تعالى: قال الله تعالى { الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ

الْقُلُوبُ } [الرعد: ٢٨]

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : تَفَقَّدُوا الْحَلَاوَةَ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: فِي الصَّلَاةِ وَفِي الذِّكْرِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنْ وَجَدْتُمْ وَإِلَّا فَاعْلَمُوا أَنَّ الْبَابَ مُعَلَّقٌ. (٢١٧)

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : وَالْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا يَجِدُ فِي قَلْبِهِ بِذِكْرِ اللَّهِ، وَذِكْرِ مَحَامِدِهِ، وَآلَائِهِ، وَعِبَادَتِهِ، مِنَ اللَّذَّةِ مَا لَا يَجِدُهُ بِشَيْءٍ آخَرَ. (٢١٨)

٦ - التنويع في العبادات: لقد جاءت الشريعة بالتنويع في العبادات، فمنها ما هو بدني، ومنها ما هو مالي، ومنها ما هو بدني مالي، ومنها ما هو عمل ظاهر، ومنها ما هو عمل باطن. ومن الحكم في ذلك - والله أعلم - دفع الملل عن النفس، وعدم تحول العبادة إلى عادة، فإن الإنسان عند تنويعه في العبادات وصفاتها يستحضر أنه متبع لأوامر ربه، مقتد بهدي نبيه - صلى الله عليه وسلم -، وهذا يورثه لذة يجدها في قلبه. (٢١٩)

آثار تذوق طعم الإيمان وحلاوته:

١ - طيب العيش في الدنيا: قال تعالى {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ

حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: ٩٧]

قال ابن كثير - رحمه الله - : وَالْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ تَشْمَلُ وُجُوهَ الرَّاحَةِ مِنْ أَيِّ جِهَةٍ كَانَتْ. (٢٢٠)

قال ابن القيم -رحمه الله- : وَقَدْ فَسَّرَتِ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ بِالْفَنَاءَةِ وَالرِّضَا، وَالرِّزْقَ الْحَسَنَ، وَالصَّوَابُ: أَنَّهَا حَيَاةُ الْقَلْبِ وَنَعِيمُهُ، وَبَهْجَتُهُ وَسُرُورُهُ بِالْإِيمَانِ وَمَعْرِفَةِ اللَّهِ، وَمَحَبَّتِهِ، وَالنَّابِغَةَ إِلَيْهِ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَا حَيَاةَ أَطْيَبَ مِنْ حَيَاةِ صَاحِبِهَا، وَلَا نَعِيمَ فَوْقَ نَعِيمِهِ إِلَّا نَعِيمَ الْجَنَّةِ. . . . وَإِذَا كَانَتْ حَيَاةُ الْقَلْبِ حَيَاةً طَيِّبَةً تَبَعَتْهُ حَيَاةُ الْجَوَارِحِ، فَإِنَّهُ مَلَكُهَا. . . . وَهَذِهِ الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ تَكُونُ فِي الدُّورِ الثَّلَاثِ، أَعْنِي: دَارَ الدُّنْيَا، وَدَارَ الْبَرْزَخِ، وَدَارَ الْقَرَارِ. (٢٢١)

وفي المقابل: قال تعالى {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} {طه: ١٢٤}

قال ابن كثير -رحمه الله- : فَلَا طُمَأْنِينَةَ لَهُ وَلَا انْتِشَاحَ لَصَدْرِهِ، بَلْ صَدْرُهُ ضَيْقٌ حَرَجٌ لِضَلَالِهِ، وَإِنْ تَتَعَمَّ ظَاهِرُهُ وَلَبِسَ مَا شَاءَ وَأَكَلَ مَا شَاءَ وَسَكَنَ حَيْثُ شَاءَ، فَإِنَّ قَلْبَهُ مَا لَمْ يَخْلُصْ إِلَى الْيَقِينِ وَالْهُدَى فَهُوَ فِي قَلْقٍ وَحَيْرَةٍ وَشَكٍّ، فَلَا يَزَالُ فِي رَيْبَةٍ يَتَرَدَّدُ فَهَذَا مِنْ ضَنْكِ الْمَعِيشَةِ. (٢٢٢)

٢- الإحساس بمرارة الكفر والفسوق والعصيان: قال الله تعالى {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ

وَزَيَّنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضَلْنَا مِنَ اللَّهِ

وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} فمن امتن الله سبحانه عليه وأذاقه طعم وحلاوة الإيمان، فلا يمكن أبداً أن

يستعذب معها طعم الكفر والفسوق والعصيان.

قال ابن رجب -رحمه الله- : فإذا وجد القلب حلاوة الإيمان أحس بمرارة الكفر والفسوق

العصيان ولهذا قال يوسف عليه السلام: {رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ}. (٢٢٣)

٣- حلاوة الإيمان سبب في ثبات القلوب على الدين:

في حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- ، الطويل أن هرقلاً لما سأل أبا سفيان بن حرب -
رضي الله عنه- عن حال اتباع محمد-صلى الله عليه وسلم- فقال له: وسألتك أيرتد أحد سخطاً
لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. (٢٤١)

٤- بل وتجعل العبد يذم الطاعة حتى أنه لا يستطيع أن يفارقها أو يستغني عنها:

كان ثابت البناني -رحمه الله- يقوم الليل كله، قال: فكنت أدخل في الصلاة فأحمل همّ خروجي
منها ويضيق صدري إذا فرغت لأنني خارج منها. فإذا جاء السحر قال: اللهم إن كنت أعطيت
أحدًا أن يصلي في قبره فأعطني.

وقال علي بن بكار: منذ أربعين سنة ما أحرزني شيء سوى طلوع الفجر.

وقال الفضيل بن عياض: إذا غربت الشمس فرحت بالظلام لخلوتي بربي وإذا طلعت حزنت
لدخول الناس علي.

وقال أبو سليمان الداراني: أهل الليل في ليالهم ألد من أهل النهي في لهوهم ولولا الليل ما أحببت
البقاء في الدنيا.

٥- حلاوة الإيمان تهون عليك مصائب الدنيا وهمومها

فحلاوة الإيمان تنسيك كلَّ أَلَمٍ وَتَعَبٍ وَنَصَبٍ، لَمَّا دَخَلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَةَ -رَحِمَهُ اللهُ- إِلَى سِجْنِ الْقَلْعَةِ وَصَارَ دَاخِلَ سُورِهَا نَظَرَ إِلَيْهِ وَقَالَ: { فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ } قَالَ تَلْمِيزُهُ ابْنُ الْقَيْمِ -رَحِمَهُ اللهُ- : سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَةَ يَقُولُ: مَا يَصْنَعُ أَعْدَائِي بِي؟ أَنَا جَنَّتِي وَبَسْتَانِي فِي صَدْرِي، أَيُّنَمَا رُحْتُ فَهِيَ مَعِيَ لَا تَفَارِقُنِي، إِنَّ حَبْسِي خُلُوءٌ، وَقَتْلِي شَهَادَةٌ، وَإِخْرَاجِي مِنْ بَلَدِي سِيَاحَةٌ. وَكَانَ يَقُولُ فِي مُحَبْسِهِ فِي الْقَلْعَةِ: لَوْ بَدَلْتُ مِائَةَ

هذه القلعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة. [٢٥٥]

مواقف لمن ذاق حلاوة الإيمان

سحرة فرعون الذين آمنوا

انظر إلى حال السحرة لما سكنت المحبة قلوبهم، سمحوا ببذل نفوسهم، فقالوا لفرعون: { فَأَقْضِ مَا

أَنْتَ قَاضٍ }

قال ابن القيم: سجدوا له سجدة واحدة، فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا منازلهم من الجنة، فغلبهم الوجد

وتمكن منهم الشوق فقالوا لفرعون { فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا }. [٢٦٦]

يوسف عليه السلام

تمكنت محبة الله من شغاف قلبه، وهو شاب قوي فتى في ريعان الشباب، عنده أجمل النساء، امرأة ذات منصب وجمال وسطوة، غلقت الأبواب، وهيات نفسها، وبذلت عرضها وشرفها، . . . وهو عبدٌ مملوك لها، {وَرَأَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ} صرخ بها وقال معاذ الله، أن يراني ربي وحببي على ما يكره. فمتى تمكنت اللذة من القلب، لم تتبعث الجوارح إلا إلى طاعة الرب.

بلال بن رباح -رضى الله عنه-

سامه سيده أمية بن خلف سوء العذاب، فكان يجره في سوق مكة ويضحك عليه الصبيان، وكان يضعه في الرمضاء تحت حرارة الشمس المحرقة في الصيف بدون ثياب، ويضع الحجارة الثقيلة على صدره فلا يزيد بلال عن قوله: أحدٌ أحد، أحدٌ أحد، فلما اشتراه أبو بكر وأعتقه، قيل له: كيف كنت تتحمل العذاب؟ قال: مزجتُ حلاوة الإيمانِ بمرارة العذابِ، فطغتُ حلاوة الإيمانِ على مرارة العذابِ فلم أشعرُ بشيءٍ. (٢٢٧)

عبدُ الله بنُ حذافة السهمي -رضى الله عنه-

عن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: أسرت الروم عبد الله بن حذافة السهمي صاحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال له الطاغية تنصروا وإلا قتلناك. فأبى عليه، فدعا بقدر من نحاس فملئت زيتها وأغليت ودعا رجلاً من أسرى المسلمين فعرض عليه النصرانية فأبى فألقاه في هذا القدر، فإذا عظامه تلوح، فقال لعبد الله ابن حذافة: تنصروا وإلا ألقيناك. قال: والله ما أفعل. فأمر به

أَنْ يُقَى فِي هَذَا الْقَدْرِ، فَجَاءُوا إِلَيْهِ وَقِيدُوهُ، فَبَكَى! فَقَالُوا قَدْ جَزَعَ قَدْ بَكَى. قَالَ: رُدُّوهُ. فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ: لَا تَطْنَنَّ أَنِّي بَكَيتُ جَزَعًا وَلَكِنْ بَكَيتُ إِذْ لَمْ يَكُنْ لِي إِلَّا نَفْسٌ وَاحِدَةٌ يُفَعَلُ بِهَا هَذَا فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَقَدْ كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ لِي أَنْفُسٌ عَدَدَ كُلِّ شَعْرَةٍ فِي جَسَدِي ثُمَّ تُسَلِّطُ عَلَيَّ فَتَفْعَلُ بِي هَذَا. (٢٧٨)

خُبَيْبِ بْنِ عَدِي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -

عندما أسرتَه قريش وعذبتَه، فمكثَ عندهم مسجونًا، ثمَّ أجمَعُوا على قتله، فخرجوا به من الحرم إلى التنعيم، فلما أجمَعُوا على صلبه قال: دَعُونِي حَتَّى أَرْكَعَ رَكَعَتَيْنِ، فَتَرْكُوهُ، فَصَلَّاهُمَا، فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ: وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ تَقُولُوا إِنَّ بِي جَزَعٌ لَزِدْتُ فِي الصَّلَاةِ ثُمَّ قَالَ: "اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا وَأَقْتُلْهُمْ بَدَدًا، وَلَا تَبْقُ مِنْهُمْ أَحَدًا، ثُمَّ قَالَ:

فَلَسْتُ أَبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا. . . عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللَّهِ مَصْرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَاءُ. . . يُبَارِكُ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعٍ.

فَقَالَ لَهُ أَبُو سَفْيَانَ: أَيْسُرُكَ أَنْ مُحَمَّدًا عِنْدَنَا تُضْرَبُ عُنُقُهُ، وَإِنَّكَ فِي أَهْلِكَ آمِنًا، فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ، مَا يَسُرُّنِي أَنِّي فِي أَهْلِي، وَأَنَّ مُحَمَّدًا فِي مَكَانِهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ تُصِيبُهُ شَوْكَةٌ تُؤْذِيهِ. (٢٧٩)

فهذه بعض ثمار وآثار تمكن الإيمان من القلب وذوق طعمه وحلاوته. وهنا السؤال: هل نجد حلاوة الإيمان في قلوبنا عند العمل لله جل وعلا؟، وهل نستشعر لذة الطاعة عند القيام بها؟ أم أن

أعمالنا صارت مراسيم وصور تُؤدى لإسقاط الواجب فقط؟ وهل نجد في قلوبنا من هذه اللذة والحلاوة ما يُثبتنا عند الفتن والشدائد والمحن؟

قال ابن القيم -رحمه الله- : سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ -رحمه الله- - يَقُولُ: إِذَا لَمْ تَجِدْ لِلْعَمَلِ حَلَاوَةً فِي قَلْبِكَ وَأَنْشِرَاحًا، فَاتِّهَمُهُ، فَإِنَّ الرَّبَّ تَعَالَى شَكُورٌ. يَعْنِي أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُثِيبَ الْعَامِلَ عَلَى عَمَلِهِ فِي الدُّنْيَا مِنْ حَلَاوَةٍ يَجِدُهَا فِي قَلْبِهِ، وَقُوَّةٍ أَنْشِرَاحٍ وَقُرَّةٍ عَيْنٍ. فَحَيْثُ لَمْ يَجِدْ ذَلِكَ فَعَمَلُهُ مَدْخُولٌ. (٢٣٠)

موانع حصول اللذة بالأعمال الصالحة:

هناك أمور تحول بين العبد وبين التلذذ بالأعمال الصالحة، منها ما يلي:

١ - المعاصي والذنوب:

سُئِلَ وَهَيْبُ بْنُ الْوَرْدِ: هَلْ يَجِدُ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ يَعْصِي اللَّهَ؟ قَالَ: لَا، وَلَا مَنْ هَمَّ بِالْمَعْصِيَةِ. (٢٣١)

قال ابن الجوزي -رحمه الله- : فرب شخص أطلق بصره، فحرم اعتبار بصيرته، أو لسانه، فحرم صفاء قلبه، أو آثر شبهة في مطعمة، فأظلم سره، وحرم قيام الليل، وحلاوة المناجاة، وهذا أمر يعرفه أهل محاسبة النفوس. (٢٣٢)

٢ - كثرة مخالطة الناس:

قال ابن القيم -رحمه الله- : إن فضول المخالطة هي الداء العضال الجالب لكل شر وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة وكم زرعت من عداوة وكم غرست في القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات وهي في القلوب لا تزول ففضول المخالطة فيه خسارة الدنيا والآخرة وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة. [٢٣١]

٣ - تحول العبادات إلى عادات:

فالصلاة التي كانت قرة عيون المؤمنين، ومعراج المتقين، أصبحت عند كثير من المصلين عبارة عن حركات منظمة تفتقد الخشوع والطمأنينة. وأنى لصلاة كهذه أن تنهى عن الفحشاء والمنكر، فتؤدي وظيفتها في حياة الناس وسلوكهم. . . !

والزكاة التي شرعت طهرة للقلوب، وتزكية لها من حب المال أصبحت عند كثير من المؤدين لها ضريبة من الضرائب، يحتال عليها ويتناقل من دفعها. وأنى لمثل هذه الزكاة أن تردع صاحبها عن الحرام، وأن تطهر قلبه من حب المال. . . !

وشهر رمضان الذي كان مدرسة التقوى والصبر. . . أصبح شهر طعام وشراب، وتلذذ وسمر. . . يفهمه كثير من الصائمين امتناعا عن الطعام والشراب في النهار، واسترسالا فيه بالليل، وأنى لمثل هذا الصيام أن يطهر النفوس ويرببها على فضائل الصيام. . . ! وقل مثل هذا في كل شعيرة من الشعائر التعبدية. [٢٣٤]

والحمد لله رب العالمين

[١] شرح النووي على مسلم (١٣ / ٢)

[٢] رواه البخاري (١٦) ومسلم (٤٣)

[٣] رواه البخاري (٦٠٤١)

[٤] مدارج السالكين (٨ / ٣)

[٥] رواه مسلم (٣٤)

[٦] شرح النووي على مسلم (٢ / ٢)

[٧] رواه البخاري (١٥) ومسلم (٤٤)

[٨] مسلم (٤٤)

[٩] رواه البخاري (٦٦٣٢)

[١٠] جامع العلوم والحكم (٣٩٨ / ٢)

[١١] مصنف ابن أبي شيبة (٣٦٨ / ١٣)

[١٢] رواه أحمد (٢٩٨ / ٢) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٠٣٣ / ٢)

[١٣] رواه أبو داود (٤٦٨١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٣٤ / ٢)

[١٤] فتح الباري لابن رجب (٥٨ / ١)

[١٥] مدارج السالكين (٣٥٤ / ٢)

- ([١٦٦]) صفة الصفوة (٢ / ١٥٤)
- ([١٧٧]) مدارج السالكين (٢ / ٣٩٦)
- ([١٨٨]) منهاج السنة النبوية (٥ / ٣٨٩)
- ([١٩٩]) لذة الأعمال الصالحة (ص: ٢٤)
- ([٢٠٠]) تفسير ابن كثير (٤ / ٦٠١)
- ([٢١١]) مدارج السالكين (٣ / ٢٤٤)
- ([٢٢٢]) تفسير ابن كثير (٥ / ٢٨٣)
- ([٢٣٣]) فتح الباري لابن رجب (١ / ٥٨)
- ([٢٤٤]) رواه البخاري (٧)
- ([٢٥٥]) الوابل الصيب (ص: ٤٨)
- ([٢٦٦]) بدائع الفوائد (٣ / ٢٣٤)
- ([٢٧٧]) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (١ / ١٠٤)
- ([٢٨٨]) الثبات عند الممات (ص: ٥٣)
- ([٢٩٩]) زاد المعاد (٣ / ٢١٩)
- ([٣٠٠]) مدارج السالكين (٢ / ٦٨)
- ([٣١١]) جامع العلوم والحكم (٢ / ٣٩٧)
- ([٣٢٢]) صيد الخاطر (ص: ٦٦)
- ([٣٣٣]) بدائع الفوائد (٢ / ٢٧٣)
- ([٣٤٤]) مجلة البحوث الإسلامية (٢ / ١٩٠)